تاريخ العتوب
آل خليفة في البحرين من ١٧٠٠ - ١٩٧٠

* تأليف: مُنى برهان غزال * مراجعة: د. عبدالله حمد محارب

وقع هـذا الكتاب في ٢٨٤ صفحة مـن القطع المتوسط، وقـد بني على ستة فصـول، صدر بمقدمة بقلم الشيخ عبـدالله بن خالد آل خليفة وزيـر العدل البحريني، ورئيس مركـز الوثائق التاريخية.

وفي هذا الكتاب تكشف المؤلفة عن جانب جديـد من جوانب شخصيتها الثقافية والتي بدا جليا من ثبت مـؤلفاتها في نهاية الكتاب أن أبـرز تلك الجوانب اهتماماتها الشعرية والأدبيـة، أما هذا الجانب الجديد وهو البحث التاريخي، فقد وظفته المؤلفة لكتابة تاريخ البحرين الرسمي.

وعلى الرغم من العنوان الذي صدر به الكتاب وهو «تاريخ العتوب» فإن هذا التاريخ لم يحظ من صفحـات الكتاب إلا بما لا يـزيـد على ٢٥ صفحة فقـط، واقتصر باقي الكتـاب على سرد تاريخ البحرين السياسي، مما يمكن معه أن يُعد هذا المؤلَّف «سجلا رسميا لتاريخ البحرين».

الفصل الأول

وقد تضمن استعراضـا سريعا لتاريخ البحرين في العصـور القديمة وحتى العصر الجاهلي، ثم العصر الاسلامي، وتتحدث الكاتبة عن وضع البحرين السياسي عند ظهور الفرق الاسلامية كالخوارج والقرامطة وثورة الزنج، وتسميها (حـركات المعارضة)؟؟!! ومع أنها تقول: - وهو أمر ثابت تـاريخيا ـ أن دولة القـرامطة قد حكمتها أسرة أبوسعيـد الجنابي القرمطي بـالوراثة، إلا أنها تسمي هذه الحركة الانفصـالية (جمهورية اشتراكية) وتعتبرهـا أول دولة بهذه الصفات أنشئت في منطقة الخليج، وأنها كـانت «شبه ثورة» أو «ثـورة كاملـة»، ويبدو أن المؤلفة قـد غفلت أن هذه الصفات هي من اهتـزاز أعطاف المستشرقين جذلا بما نال الاسلام والمسلمين مـن هذه الحركات المتمردة على الخلافة والتي يصطادونها من جوانب التـاريخ لدعم ادعاءاتهم حول فرقة المسلمين

وتناحرهم. فهؤلاء القرامطة هم الذين قتلوا الحجيج في مكة ٣١٧ هجرية في يوم التروية، وملأوا بئر زمزم بجثثهم المتشحة بلباس الإحرام، وهم الذين حرقوا الكعبة وسرقوا حجرها الأسود، وذهبوا به إلى هجر لبناء كعبة خاصة بهم. . إلى غير ذلك من الأفعال التي تكشف عن عدواة حقيقية متأصلة لديهم تجاه الإسلام والمسلمين.

ولسنا في مجال مناقشة هذا الأمر الآن إلا أنها ملاحظة لابد من ذكرها، المهم أن الكاتبة بعد أن تكمل استعراضها للدول التي تعاقبت على البحرين، تبدأ في الحديث عن العوامل المؤثرة في تاريخ البحرين السياسي في القرنين السابع والثامن عشر وترى أن هذه العوامل تنحصر في (العامل الجغرافي ـ العامل الاقتصادي ـ العامل التاريخي).

وفي الحديث عن العامل الأول فإنها تستعرض الموقع الجغرافي وأهميته التجارية والبحرية، كما تربط بين المناخ الحار الرطب في الجزيرة العربية وبين النشاط السكاني في الجزيرة، ثم تنهي الحديث عن هذا العامل بسرد احصائيات السكان، وتقول بعد ذلك: (أما اليوم فقد ارتفعت الاحصائيات حتى وصلت عام ١٩٨٤م إلى ١١٦ , ٢٤٥ ألف نسمة من البحرينيين فقط (كذا) بما فيهم الأجانب الذين يبلغون ثلث مجموع السكان. . . إلخ) ولا أدري كيف أجد محلا مناسبا للفظة (فقط) في وسط هذه العبارة (من البحرينيين فقط بما فيهم الأجانب!!؟؟).

ولأن الكتاب هو بحث في الميدان التاريخي فإن حديث المؤلفة عن العامل التاريخي هو أهم ما يلفت نظرنا في هذا البحث.

وقد بدأت الكاتبة حديثها باستعراض تاريخ العتوب في المنطقة، صدرته بجدول يبدأ بتاريخ منطقة البحرين منذ العصر القديم الذي ينتهي بحركات المعارضة كما تسميها الكاتبة والدولة العيونية والزنكوية، ثم الحديث الذي يبدأ فعليا مع هجرة العتوب من وسط الجزيرة إلى منطقة الخليج وتحدد تاريخ الهجرة سنة ١٧٠٠ ميلادية، ثم تحدثت عن أسباب هذه الهجرة وتتلخص في توالي القحط والأوبئة في المنطقة في أواخر القرن الحادي عشر، وتحاول الكاتبة أن تتبع طريق هجرة العتوب.

ثم تستعرض المؤلفة الأحوال السياسية التي ساعدت على ظهور قوة العتوب البحرية قبل «الهجرة» ولم توضح ما المقصود بالهجرة، هل هي هجرة العتوب من نجد أم هجرة آل خليفة من الكويت، والمعنى الذي ينصرف الذهن إليه هو هجرتهم من نجد، ولكن المؤلفة تقول: (. . . وكيف تهيأ المناخ الذي ساعد العتوب على ظهورهم كقوة بحرية ثم هجرتهم وبداية ظهور نجمهم على شواطىء الخليج، جاء بعد هجرتهم من نجد، وكذلك ظهورهم كقوة بحرية جاء

أيضا بعد هجرتهم لا قبلها) (راجع ص: ٤٣).

وتتحدث الكاتبة عن الأحوال السياسية للقوى الأجنبية التي كانت متواجدة في الخليج، ثم تشرح الأحوال السياسية لعمان و إيران والبصرة والإحساء بإيجاز شديد أدى إلى أن تقفز في كثير من المواضع إلى تخطي التاريخ الذي اعتمد كبداية لظهور العتوب كقوة بحرية وهو عام ١٧٠٠ بناء على الوثيقة التركية التي أثبتتها في نهاية الفصل الأول، كذلك فإنها في ص: ٥١، ٥٢ وبعد أن تورد تلك الوثيقة المهمة التي تحدد تاريخ هجرة العتوب من البحرين إلى شمال الخليج، وذلك عام ١٧٠٠، تقول: (ليس لدينا الدليل الكافي لتحديد هجرة العتوب. . .).

ثم تتحدث عن الروايات المحلية حول تلك الهجرة، وتنتهي بأن تشكك في رواية (واردن) مُتَّبعة منهج د. أبوحاكمة نفسه عندما ضعف قول واردن وغيره من موظفي شركة الهند الشرقية بأن آل صباح وآل خليفة وآل جلاهمة وغيرهم من العتوب قد وصلوا الكويت سنة ١٧١٦.

ولا يلتفت في هذا إلى محاولة أبوحاكمة للشك في رأي (واردن) ــ وهي محاولة لم يقدم أبوحاكمة أي دليل لدعمها سوى بعض الافتراضات الاستنتاجية.

وهناك دلائل أخرى كثيرة يمكن إيرادها لاثبات أن العتوب قد وصلوا قبل التاريخ الذي حدده أبوحاكمة إلى الكويت منها الوثيقة التركية، ثم تاريخ بناء مسجد آل خليفة في الكويت عام ١٧١٤، وهو تاريخ يقترب كثيراً من التاريخ الذي حدده (واردن) لوصول العتوب، وهناك شواهد أخرى كثيرة، ولما كان المقام هو عرض الكتاب وليس تتبع الآراء الواردة والرد عليها، فإننا سنكتفي هنا بما سبق الحديث عنه.

وتستمر الكاتبة في استعراض هجرة آل خليفة بعد ذلك من الكويت إلى الزبارة التي ترى أنها حدثت سنة ١٧٦٦م، وبعد أن تشرح أسباب هذه الهجرة، تنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن نشأة الزبارة ثم تستعرض أحداث واقعة الزبارة ونتائج تلك المعركة التي أدت إلى دخول آل خليفة إلى البحرين.

الفصل الثاني

يبدأ هذا الفصل بوصف لظروف البيئة الثقافية والتاريخية في البحرين منذ عام ١٧٨٠ وحتى عام ١٨٦١م.

في هذا الفصل تحاول المؤلفة أن تتلمس ملامح مرحلة نشوء الإمارة فتصف البناء الاجتماعي

والاقتصادي للإمارة موضحة أثر الهجرة المستمرة على البحرين، وتغير الظروف التاريخية المتلاحقة، كما حاولت أن تبرز أثر الاضطرابات المستمرة في الجزيرة العربية والخليج العربي في القرن الثامن عشر بصفة عامة على الوضع في مجمله في البحرين.

ومن أبرز تلك التغيرات الهجرات المستمرة والحروب وظهور الدعوة الوهابية. وقد بدأت هذه الفترة بما أسمته المؤلفة «تأسيس متطلبات التغيير الأساسي» وذلك عندما ظهرت القوة البريطانية بعد عدة اضطرابات كعامل حاكم، ولكنني لا أفهم عبارة المؤلفة في صفحة ٧٥ عندما قالت:

(ثانيا: بين عام ١٨٢٨ ـ ١٨٦٩ عانت البحرين فترة من الاضطرابات الداخلية الدامية الشديدة الناجمة عن التنافس على الحكم، وبلغت ذروتها بين ١٨٣٤م، ١٨٤٦م ثم بين ١٨٦٧م، ١٨٦٩م، وكانت البحرين آنذاك هادئة).

فعبارتها في آخر الفقرة تتعارض مع ما جاء في أولها. وعن الوضع الاقتصادي ترى المؤلفة أن آل خليفة استطاعوا أن يراقبوا المصادر الاقتصادية الرئيسية من خلال نظام اجتماعي اقتصادي خاص في البحرين.

وقد تعرضت البحرين لسلسلة من الغزوات قام بها السعوديون والبوسعيديون (العمانيون) ضد البحرين بين ١٧٩٦ و١٨٢٨.

وفي محاولة من المؤلفة لتوثيق سنة فتح البحرين الذي ترى أنه حدث في ديسمبر سنة ١٧٨٣م، فإنها تستشهد على ذلك بماجاء في التحفة النبهانية، بالاضافة إلى أبيات من قصيدة محمد بن أحمد بن سلمان الخليفة (أحمد صارفي أو آل خليفة) وهي بحساب الجمل سنة ١١٩٧هـ، وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ استولى السلطان أحمد، سلطان مسقط على البحرين وتعتمد في تحديد تاريخ هذا الاستيلاء وهو سنة ١٨٠٢م على مخطوط اسمه (عقد جيد الدرر في معرفة حساب نوروز أهل البحر) لكاتبه جابر بن عبدالخضر بن هلال بن بدر، وهو شاهد عيان لما حدث، سجل حوادث هذا الهجوم بقلمه وحددها باليوم والساعة.

ومن أبرز حوادث تلك الفترة حادثة قتل سلطان بن أحمد سلطان مسقط قرب لنجة وذلك في سنة ١٢١٩هـ.

وعندما توفى الشيخ محمد بن أحمد آل خليفة سنة ١٢٢٣ استعان آل خليفة بآل سعود لاسترداد البحرين، وقد سردت المؤلفة تفاصيل ذلك في حديثها عن استرجاع البحرين بقيادة

عبدالرحمن بن راشد الفاضل سنة ١٢٢٥ هـ ثم وقعه (اخكيكره).

وقد تصدى حكام البحرين بعد ذلك لمحاولات سلطان مسقط لمعاودة الهجوم على بلادهم، ولم يوقف هذا الزحف إلا تدخل بريطانيا في الخليج للقضاء على قوة القواسم التي كانت تهدد تجارتهم، وقد استطاعت حملة الجنرال (وليام جرانت كير) ١٨١٩ ـ ١٨٢٠م أن تهدم حصون القواسم وتحرق أسطولهم البحري، ثم عقدت معاهدة سلام مع شيوخ الخليج، وانضمت البحرين بعد ذلك إلى هذه المعاهدة، ولم توقف هذه المعاهدة أطماع سلطان مسقط في البحرين ولم تحاول بريطانيا أن تتدخل بصورة مباشرة، بل أرادت إنهاك القوى العربية في المنطقة، لتفرض بريطانيا سيطرتها التامة بعد ذلك.

وقد دفع هذا محمد بن ناصر شيخ بوشهر إلى التوسط بين البحرين ومسقط فعقدت معاهدة صلح بينهما في عام ١٨٢٩م.

الفصل الثالث

السياسة البريطانية في الخليج العربي عام ١٨٠٠

بدأت هذه السياسة في التبلور عندما برز الصراع في المنطقة بين فرنسا وبريطانيا للتنافس على تأمين طريق تجارية لأسطول كل من البلدين، وقد انتهى ذلك بتعزيز بريطانيا لموقعها في الخليج عن طريق حملتها سنة ١٨٠٥، ثم حملتها في سنة ١٨١٩ التي أحرقت رأس الخيمة وأسطول القواسم.

وتكاد ترتبط سياسة بريطانيا الدولية في الخليج وأطماعها بمختلف سواحله إلى جانب الساحل العماني وساحل رأس الخيمة وقطر والبحرين، وتنقل المؤلفة عن الدكتور أبوحاكمة قوله: «إن الكويت ومنطقة الخليج منذ عام ١٨١٥ ــ ١٨٣٦ كانت تتأثر بعوامل خارجية ضاغطة ومؤثرة، ففي المقام الأول تأثرت بالوجود الإنجليزي في مياه وشواطىء الخليج، ثم بالتواجد التركي في العراق والتركي والمصري في نجد وشرقي الجزيرة العربية، وكانت هذه الحقبة مليئة بوثائق شركة الهند الشرقية وبمراسلاتها القادمة من الخليج والتي تتحدث عن القتال ضد القواسم أو محاربة القرصنة، ثم مقاومة تجارة الرقيق في الخليج، إلى جانب الخلافات التي وجدت ضمن عائلة آل خليفة فأثرت بشكل أو بآخر على استقلالهم».

وفي هـذا الفصل تحدثت المؤلفـة عن مـوقف الحملـة المصريـة من البحـرين، والتي انتهت المفـاوضات بينهما إلى عقـد معـاهـدة أمان بين البحـرين ومحمـد خورشيـد بـاشـا قائد الحملـة المصرية.

وقد خشيت بريطانيـا أن تشكل مصر بعد هذه الاتفاقية قوة بحريـة عربية في مياه الخليج، مما قد يجعل المصالح الانجليزية في المنطقة في خطر داهم، ويقلب ميزان القوى في الخليج، وقد ضغطت بريطانيا على مصر بقوة دفعت محمد علي إلى التراجع، وإلى تجميد علاقاته مع البحرين حتى لا يتيح الفرصة لبريطانيا لاحتلالها، وأرسل إلى خورشيد يأمره بوقف الاتفاقية.

ثم واصلت بـريطـانيـا ضغوطهـا على دول الخليج الأخـرى لضمان وقف النفـوذ المصري في الخليج.

الفصل الرابع

ملامح حياة الشيخ محمد بن خليفة بن أحمد آل خليفة

الحاكم الرابع (١٨٤٣ ـ ١٨٦٩)

في هذا الفصل الـذي لم يستغرق أكثـر من ١٥ صفحة تحاول المؤلفـة أن تتبع بدايـات ظهور الشيخ محمد بن خليفة على مسرح الأحداث في البحرين، وذلك عندما قامت بعض المواجهات البحريـة بين الشيخ محمد وبين عـم أبيه حاكـم البحرين الشيخ عبـدالله. وبعد عـدة منازلات حربية (موقعة الناصفة، موقعة سـوق الخميس، موقعة الحنينية، موقعة المحرق) استطاع الشيخ محمد أن يستولي على السلطـة في البحرين، ومع استمرار الخلافات العائليـة، حاولت فارس أن تثير بعض الادعاءات في البحرين، وقد ووجهت هذه المحاولات برد بريطاني حاسم.

كذلك فإن الفئات المتصـارعة بدأت في الاتصال بالقوى ذات النفـوذ والمصلحة في المنطقة، كالدولـة العثمانية التي حاولت بسط سلطانها على البحرين، ونظـرا لحرج الموقف وخطورته على المصالح البريطـانية في الخليج استطاعت بـريطانيا ـ وبـالقوة ـ أن تجعل الشيخ محمـد يوقع على معاهدة السلام سنة ١٨٦١م.

وتبدأ المرحلة التاليـة من حياة الشيخ محمد بلجوئه إلى الكويت بعد أن أجبرتـه بريطانيا على تسليم الحكم لأخيه علي، ولم تنجح جهـود الوساطـة التي قام بها الشيخ عبـدالله بن صباح بين

الأخوين، وانتهت هذه المرحلة بقيام البريطانيين بالقبض على محمد بن خليفة ومحمد بن عبدالله ونقلهما إلى الهند وأودعا قلعة شونارد، ومات محمد بن عبدالله في الأسر ونقل محمد بن خليفة إلى مكة بعد نجاح مساعي زوجته الكويتية الأصل لدى السلطان العثماني ـ ومات فيها بعد واحد وعشرين عاما في المنفى.

الفصل الخامس

وفي هذا الفصل سردت المؤلفة سيرة حياة حكام البحرين وبنته على قسمين رئيسيين، القسم الأول ويناقش حكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، ثم محاولات الشيخ عيسى للحد من التدخل البريطاني في الإمارة، ويستمر حكمه من ١٨٦٩ إلى ١٩٢٤م، وقامت بريطانيا بعزله سنة ١٩٢٣ فتنازل لابنه الشيخ حمد الذي كان وليا للعهد واستمر حكم الشيخ حمد عشر سنوات.

وقد بدأت في عهده مسيرة الإصلاح في مجالات الإدارة المالية والشرطة والتربية بتوجيه بريطاني مدروس ثم جرى إصلاح أنظمة الغوص في مصائد اللؤلؤ لتحسين أحوال الغواصين، وأصاب الإصلاح تسجيل ملكية الأراضي والنظام القضائي.

وفي عهد خليفته الشيخ سلمان بن حمد (١٩٢٤ ـ ١٩٦١) استمرت مسيرة الاصلاح، وقد ظهرت في عهده البلديات وإداراتها الحديثة، كما توسع المجلس البلدي حتى وصل عدد أعضائه إلى ٢٤ عضواً سنة ١٩٤٠ انتخب بعضهم من أهل المنامة.

وفي القسم الثاني تتناول الباحثة الصراع العثماني البريطاني على البحرين، وتعود أدراجها للحديث عن تاريخ هذا الصراع مكررة بعض الحوادث التي سبق أن ذكرتها حول رغبة مدحت باشا في ضم البحرين للاحساء إبان الحملة التركية عليها سنة ١٨٧١م وتستعرض كيف استطاع البريطانيون أن يسيطروا تدريجيا على الموقف إلى أن انتهت أحداث الصراع تلك باتفاقية سنة ١٩١٣ التي أنهت النفوذ العثماني على الخليج، وتثير في تعليقها عليها ملاحظة ترى فيها أن بريطانيا قد تساهلت في هذه الاتفاقية فيما يتعلق بعلاقة الكويت بالدولة العثمانية في حين أنها قد حددت بوضوح تنازل الدولة العثمانية عن البحرين وقطر، على الرغم من اقتناعها بأن العلاقة المذكورة لا تتعدى بعض الشكليات التي لا قيمة لها. ولكنها لم تعط تفسيرا لهذا الموقف البريطاني، أو قل الكويتي على الرغم من وجود أدلة في الاتفاقية نفسها توضح هذا الموقف،

فالمادة التاسعـة من هذه الاتفاقية التي تعفي أمـلاك شيخ الكويت في البصرة من الضرائب هي التي تعطي تفسيرا لابقاء شعرة معاوية متصلة بين الدولة العثمانية والكويت حفاظا على الأراضي والبساتين العظيمـة التي كان الشيـخ وبعض الكويتيين يملكـونها في الفاو والبصرة كما أن المواد الخامسة والسادسة والسـابعة والعاشرة تحدد بين الكويت والدولـة العثمانية بصورة واضحة بينما تنص المادة الأولى على اعتبـار الكويت قضـاءا مستقلا. وتنتقل البـاحثة بعـد ذلك إلى مناقشـة أوضاع البحرين الداخلية أثناء الحرب العالمية الثانية.

وفي القسم الثالث الذي نسيت الكاتبة أن تشير إليه في فهارس الكتاب على الرغم من اثباتها لعناوينـه الفرعية، فإنها تـرصد فيه العـلاقات البحرينيـة السعودية منـذ عهد الشيخ عيسى بن علي، وتصف من خلال شهادة ـ شاهد عيان ـ زيارة الملك عبدالعزيز للبحرين عام ١٩٣٠.

كما تستعـرض الكـاتبـة التعـاون بين البحـرين والمملكـة في المجـال الصحي وتختم الفصل بالحديث عن العلاقات السياسية بين البحرين والمملكة في عهد الملك عبدالعزيز.

الفصل السادس

خصصت المؤلفة هـذا الفصل لوصف فترة حكم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفـة اعتبارا من سنة ١٩٦١م.

فتتحدث عـن مولده وحيـاته، ثم تصـف بايجاز أحوال البحـرين قبل الاستقـلال وظروف المطالبـة الايرانيـة لتي انتهت بقرار لجنة الامم المتحـدة التي أرسلها (أوثـانت) بعد أن تبين لها أن الغالبية الساحقة من الشعب البحريني قد أيدت إقامة دولة عربية ذات سيادة في البحرين.

وتختتم المؤلفة هذا الكتاب ببيان الاستقـلال الذي أصدره الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٧١م.

وقد خصصت الكاتبة ثبتا بمراجع الكتاب ومصادره لم تلتزم فيه بنظام معين في الترتيب، بل سردت اسماء الكتب دون اعتبار للنص الهجـائي، بالاضافـة إلى ورود الكتب مرة بعنـاوينها ثم بأسماء مؤلفيهـا، ومرة أخرى بـاسماء المؤلفين ثم بالعنـاوين بعد ذلك، وتنتشر في ثنايـا الكتاب الأخطاء اللغـوية بصورة ملحـوظة، كما يبدو أن مراجعـة الطباعة والتنسيق لهذا الكتـاب كانت سريعة وغير دقيقة مما أتاح لكثير من مظاهـر البتر في النصوص وسقوط بعض الفقرات والأسطر بالاضـافة إلى الأخطاء المطبعيـة الكثيرة أن تطغى بصورة واضحة على الكتـاب (أنظر على سبيل

المثال ص : ٩٩ وما بعدها وكذلك ص : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٧٩ ومواضع أخرى كثيرة) .

ولا يغض كل هـذا من قيمة البحث ، فقـد تميز بـاعتماده على وثائق متعـددة ومخطوطـات ، بعضها لم يعـرف من قبل ، مثل مخطوطة كتـاب (عقد جيد الـدرر في معرفة حســاب نوروز أهل البحر) ، بـالاضافـة إلى الأحاديث الشخصية المبـاشرة لبعض الذين عـاصروا بعض الأحداث أو نقلوا روايات موثقـة عن أحداث وقعت قريبا من عصرهم كحديثها مع الشيـخ عبدالله بن خالد بن علي آل خليفة ، ولـو أتيحت لهذا الكتاب مراجعة لأسلـوب التحرير والطبـاعة لتخلص من كثير من تلك المآخذ .